

# التغيير الاجتماعي و ظاهرة التهريب

## في الجزائر

د: بن معمر بوخضرة

جامعة تلمسان

### مقدمة:

لقد كشفت الدراسات الحديثة على أن التهريب ، لا يخضع لاعتبارات اقتصادية بحثة فحسب، بل يتعلق بعدة عوامل تحتاج الى توسع مجال البحث فيها ، منها علم الاجتماع و الانتروبولوجيا خاصة في الجانب الذي يتعلق بنمو المجتمع و سيرورته و التغيير الذي يطرأ على هذا النمو سلبا و ايجابا.

من هذا المنطق فان فك خيوط التشابك الموجود بين التغيير الاجتماعي و ظاهرة التهريب يقتضي منا الوقوف على آليات اشتغال كل عنصر من هذين العنصرين أي التغيير الاجتماعي و التهريب ، من حيث عملية التفاعل و التبادل و التحويل ، فالتهريب بوصفه سلوك فردي تقف من ورائه ثقافة " إذ يقال ان وراء كل سلوك ثقافة" فهذه الثقافة بحد ذاتها هي نتاج تفاعلات اجتماعية ، تصب فيها افكار متنزعة تجمع ما بين هو ديني و اجتماعي و سياسي و نفسي فتتشكل هذه الثقافة الجديدة نتيجة هذه التفاعل و التي نسميها بثقافة التهريب.

فالعلاقة بين التغيير و التهريب هي علاقة جد معقدة لا يمكن الوقوف عندها و سبر أغوارها ، إلا إذ حللنا الوسائط القائمة بينهما.

## ➤ النظم الاجتماعية و النظم الاقتصادية:

لا يمكن الحديث عن ظاهرة التهريب إلا بعد أن ندرك تلك العلاقة الوطيدة بين التغيير الذي يحدث على النظام الاجتماعي و النظام الاقتصادي، إذ بينهما علاقة تبادلية " فالنظام الاقتصادي هو كل متكامل و مترابط من الإجراءات و التدابير و القيم و الأفكار و العادات التي تعمل بشكل متكامل على تحديد و تنظيم سلوكيات الأفراد عند قيامهم بنشاطات تهدف إلى الاستفادة من المصادر و المواد المتوفرة من أجل توفير كل ما من شأنه إشباع حاجاتهم الإنسانية"<sup>(01)</sup>.

لذلك فإن علماء الاجتماع عند دراستهم للنظام الاقتصادي ، لا ينظرون إليه على انه منفصل أو مستقل عن النظام الاجتماعي العام، بل هو جزء لا يتجزأ عنه، و يرتبط بشكل وثيق مع بقية النظم الاجتماعية الأخرى في شبكة من العلاقات القائمة على التأثير المتبادل.

يمكننا في هذا السياق أن نقول بان التهريب ظاهرة مركبة من شطرين هما: الشطر الاجتماعي و الشطر الاقتصادي ، و المجتمع هو الذي يتحكم في هذه النظم بأكملها ، نجد ذلك من خلال وجود ما يعرف بالنظم الموازية ، و هي آليات يبتكرها كل مجتمع لمواجهة المشكلات الناجمة عن النظم الصارمة و التي لا يستطيع التكيف معها .

إذ تعلن هذه النظم الموازية عن نفسها كالانحراف ناتج عن خلل ما في النظم الاجتماعية لذلك نجد الثقافة العالمية و الثقافة الشعبية ، الدين الشعبي و الدين الرسمي الاقتصادي الرسمي و الاقتصادي الموازي الذي يدخل في اطاره موضوع التهريب .

## ➤ التغيير الاجتماعي:

التغيير سنة طبيعية تخضع لها جميع مظاهر الكون، و شؤون الحياة، و قديما قال الفيلسوف اليوناني هيروقليطس " إن التغيير قانون الوجود، و الاستقرار موت و عدم و مثل فكرة التغيير ، يجريان الماء و قال: أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين إذ أن مياهها تجري من حولك أبدا" (02) .

و التغيير يتجلى في كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، و هذا ما حدا ببعض المفكرين و علماء الاجتماع على القول بانه لا توجد مجتمعات و انما الموجود تفاعلات و عمليات اجتماعية التي هي في تغيير و تفاعل دائمين و " يشير التفاعل الاجتماعي الى تلك العمليات المتبادلة بين طرفين اجتماعين ( فردين أو جماعتين أو فرد و جماعة صغيرة او كبيرة ) في موقف او وسط اجتماعي معين " (03) .

إن رصد عملية التفاعل الاجتماعي ، يستطيع أن يكشف ما طرأ من تغيير كمي و كيمي في نمط التفاعل و في المعايير الاجتماعية و القيم الأخلاقية.

و إن التغيير الاجتماعي، يتناول كل مقومات الحياة الاجتماعية و النظم و العلاقات الإنسانية، و هذا يقتضي الاستعداد لمواجهة ما يتمخض عنه امن مشكلات و متناقضات و مطالب و احتجاجات ، و لهذا فان التغيير يأتي من عملية التفاعل بين الثقافة و الاجتماع الاقتصاد و السياسة ، و للأسف انه في غالب الأحيان ما يتم إصدار أحكام مسبقة و كانت بصدد الحديث عن واقع معروف كما في موضوعنا المتعلق بظاهرة التهريب.

و في الحقيقة إن تشابك العناصر المختلفة و المكونة للثقافة و تعرضها للعديد من أشكال التفاعل و التأثير المتبادل يحيل كثير من هذه الأحكام إلى حاجة التدقيق و التحليل فالتغيير الاجتماعي إذن لا يقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة الإنسانية و الاجتماعية، و إذا بدأ فمن الصعب إيقافه نتيجة لما بين النظم الاجتماعية و النظام الاقتصادي بعامة من ترابط و تساند وظيفي و في هذا الصدد حدد و لبرت مور أهم سمات التغيير كما يلي:

- 1- يظهر التغيير في أي مجتمع أو ثقافة و يتسم بالاستمرارية و الدوام.
- 2- يطال التغيير كل مكان حيث تكون نتائجه بالغة الأهمية .
- 3- يكون التغيير مخططا مقصودا أو نتيجة للإثارة المتزنة على الابتكارات و المستحدثات المطلوبة و إذ ما أسقطنا هذه السمات على ظاهرة التهريب نجدها تتطابق مع الواقع الجرائري من اضطرار و استمرارية رغم جميع التدابير المتخذة لمواجهة ، كما انه يلقي

انتشارا واسعا فهم يعد مختصرا على الجهات الحدودية، و من خلال تهريب سلع بما فيها تهريب الأعضاء البشرية .

و عليه ، فإننا بحاجة إلى حصر مفهوم هذا المصطلح التهريب من خلال التعريفات التي أعطيت له

## ➤ التهريب:

اخذ هذا المصطلح تعريفات عدة سنختصرها في التعريف الاقتصادي.

### الغش الجمركي:

و هو الذي يكشف عن وجود بعض المتعاملين الذين يبحثون عن وضعيات تمكنهم من التهرب من الإجراءات الجمركية ، قصد التفاوض عن تدابير الخطر المفروضة على حركة البضائع أو التملص من دفع الحقوق و الرسوم الجمركية المستحقة<sup>(05)</sup> .

### و الغش الجمركي يتخذ وسيلتين:

1- يتم داخل مكاتب الجمارك في شكل عمليات تصدير و استيراد دون تصريح، أو تصريح خاطيء و هذا ما يسمى بالغش التجاري أو الغش المكتبي<sup>(06)</sup>.

2- يتم خارج مكاتب الجمارك و هذا ما يعرف بالتهريب و هذا النوع يعتبر من أكثر الجرائم الجمركية خطورة يتبين لنا من خلال هذه

المفاهيم ، بان التهريب يأخذ بعدا قيميا كركيزة له في الممارسة الفعلية لهذه الظاهرة فهو غش ( الغش الجمركي) و هو تهرب و ما يتضمنه من مضامين التحايل و المراوغة و الانفلات من قبضة القانون .

3- و لهذا أثرتنا في هذا الموضوع اللجوء إلى مقارنة التغيير القيمي للمجتمع ، فهي المقاربة الأنسب لمعالجة مثل هذه المواضيع ، فهي الداء و في نفس الوقت الدواء و العلاج لهذه الظاهرة.

### ➤ التغيير القيمي للمجتمع:

و لهذا فان اخطر تغير اجتماعي تتعرض له المجتمعات هو التغيير الذي يمس المنظومة القيمية و الذي يؤدي بدوره إلى تغيير معايير الضبط الاجتماعي.

فالنسبة لظاهرة التهريب ، نلاحظ بان المجتمع الجزائري لا يبالي بارتكابها ، بل أحيانا ما يستحسنها " فكثيرا ما يتنقل المواطنون مسافات طويلة لاقتناء سلع و مواد من الاسواق الموازية (الزوية بتلمسان ، سوق الخروب بقسنطينة ، سوق تاجنانت بميلة ، سوق دبي بسطيف ... " .

بالتالي فان رد فعل المجتمع هو إما عدم الاكتراث بالمهرب ، أو التعاطف معه بدلا من نبذه سلوكات المهريين ، فهم يعتقدون أن التهريب يمس دخل خزينة الدولة و لا يمس المواطنين ، هذا الاعتقاد يمس الفئة العريفة من

المجتمع و المتمثلة في فئة الشباب باعتبارها الفئة الأكثر عرضة لعملية التعديل و التحديث القيمي في عملية التغيير الاجتماعي.

## ➤ الشباب و تغيير القيم:

سبق القول بان ظاهرة التهريب ترتبط بنسبة كبيرة بفئة الشباب باعتبارها طاقة خلاقية و مبدعة ، و لأنها تريد أن تفجر هذه الطاقة و تستثمرها ، عليها أن تختار بين قيم ثابتة و جامدة بحكم المسار التعليمي الذي اكتسبته ، و بين قيم جديدة غير معروفة و لا مختبرة ، غالبا ما تأخذها من التغيير القيمي الذي يطرأ على المجتمع و بالقدر الذي يتناسب مع طموح الشباب و آمالهم.

لقد طرح ماكس فيرفي كتابه "القيم البروتستانية و روح الرأسمالية" فكر جديد في تناول عملية التغيير الاجتماعي بشكل عام و لتفسير ظهور الرأسمالية و تطورها بشكل خاص ، حيث اهتم بأهمية الفكر و القيم و تفسيره بظهور الرأسمالية ، حيث انه ربط بين ظهور الرأسمالية كنمط حياة عقلائي جديد يتحول في الأفكار و القيم الدينية ، حيث تتضمن البروتشانية قيما تحتوي على أهمية العمل و النجاح و عدم التبدير و لعبت هذه الأفكار الجديدة دورا مهما في تطوير الجهات و أنماط السلوك نحو العمل و عمليات الإنتاج و شجعت بشكل مباشر على تطوير النظام الرأسمالي .

لكن التطور و التغيير الاجتماعي لا يكون في الاتجاه دائما فقد يحدث هناك  
نكوصا " نتيجة لما يصيب المجتمع من الانحلال فيبدأ في التراجع و التقهقر " (07) .

لقد طرح لنا ماكس فير فكرة جوهرية و المتمثلة في دور القيم الدينية في صناعة  
التغيير الاجتماعي الذي بدوره يؤدي إلى إنتاج النظم الاقتصادية غيرها.

و من يجد الشباب نفسه أمام صراع و تحدي كبير يتمثل في التفاوت الكبير بين  
الطموحات و الإمكانيات فالطموحات كثيرة و الإمكانيات قليلة.

إن هذه العواطف " مدفونة بعمق في الحياة الاجتماعية للإنسان و عندما تفقد احد منا  
فإنها فإنها تبحث عن منفذ آخر " (08) .

و بحكم انفتاح هذه الفئة على الثقافات الأخرى و دخولها في عملية المقارنة  
و الموازية بينها و بين ما تحققة فئة الشباب في الدول المتقدمة فإنها تلجأ إلى الهجرة  
السرية أو طرق أخرى غير مشروعة لجمع الأموال و في مقدمتها التهريب ، لكن الإقبال  
على هذه العملية أو تلك يجعلها أكثر ميلا إلى قيم التجديد و التغيير و أكثر تمردا على  
ما يحيط بها من قيم و معايير و خيارات اجتماعية و سياسية و حياتية.

إذ يؤكد كل من كلينارد و أبوت " أن الشباب في الدول النامية من أكثر الفئات  
العمرية الراغبة في تحقيق أهدافها و طموحاتها و أحيانا تتجاوز إمكانياتهم و قدراتهم تحقيق مثل  
هذه الطموحات و الأهداف " (09) .

الأمر الذي يدفعهم لمعايشة العديد من المشكلات و الاتجاه نحو الطرق غير المشروعة، مخترقين بذلك قيم المجتمع و معاييرهِ و ضوابطه.

هذا التغيير في القيم يفسر لنا علاقة التناغم الكبيرة بين التهريب و كثير من الجرائم الأخرى المنظمة عبر الوطن و المتمثلة في الفساد و الرشوة و تبيض الأموال و الإرهاب و الجريمة المنظمة و غيرها بوجهان من المخاطر التي لا تزال تحدد بالمجتمع الجزائري.

أصبحت المشكلات محل اهتمام المشرع الجزائري الذي خصها بقوانين قمعية و دعمها بإجراءات وقائية صدرت متابعتها خلال سنتي 2005-2006 ، لكننا نرى بان من القوانين الردعية ليست كافية ما دامت المشكلة الأساسية ترتبط بإعادة التقويم للاختلال الحاصل في القيم .

و لهذا ذهبت بعض الدراسات إلى حد إعطاء بعدا دينيا لانتشار ظاهرة التهريب ، و أن هناك اختلاط و تداخل بين الحلال و الحرام في المجتمع و صعوبة التمييز بينهما باعتبارها معيارين دينيين و اجتماعيين ينظمان سلوك الفرد مما يشير إلى فقدان المعالم التربوية الأساسية ، و فقدان المعايير.

و هذا مما أدى إلى انتشار ثقافة السلب و النهب لكل ما هو عمومي و طلب الشراء بطرق غير مشروعة في ظل صمت الدولة و تواطؤ المجتمع.

## الخاتمة:

خير وسيلة لمعالجة هذه المعضلة هو الاستماع لأراء الشباب و إعطاء الفرص للتعبير عن أنفسهم و مشاعرهم سواء تم ذلك عبر استخدام الدراسات الاجتماعية أو استطلاعات الرأي أو عبر المقابلات المباشرة و الحوار ، لان الفجوة أصبحت واضحة بين عالم المثل و النظريات و عالم الحياة الواقعي.

و عليه يجب إن يقوم التغيير الاجتماعي على فكر واضح و على حشد قوي و على تخطيط دقيق لبناء الدولة العصرية التي تستند إلى العلم و المعرفة و التكنولوجيا.

أصبح المقبول و المشروع رمزا للتخلف و التعصب و حتى الخرافة في حين أصبح يرى البعض المنبوذ و المشروع و حتى المحرم على انه تحررا من قيود طالما قيدت الإنسانية.

على أهل الحل و العقد أن يدركوا بان التغيير الاجتماعي حاصل لا محالة و أن المعالجات التي تعتمد أسلوب التهدئة و إرضاء المحتجين ستؤدي إلى التوتر في عالم الشغل و خلق بيئة طاردة للاستثمار مما ينعكس سلبا على الاقتصاد بارتفاع معدلات البطالة التي تؤدي بدورها إلى التهريب و بالتالي نبقى في إطار ما يعرف بالتغير الدائري.

## الهوامش:

- 1- فهم سليم الغزوي و آخرون -المدخل إلى علم الاجتماع- دار الشروق- عمان ط 1 1992- ص 233.
- 2- مقدمة في علم الاجتماع العام.
- 3- د.المصطفى حدية - قضايا في علم النفس الاجتماعي - منشورات المجلة المغربية لعلم النفس - ط 2 2013- ص 8 .
- 4- Moore, WE, Le changement Sociale , Prentice Hell, neu Jersey , 1963- p152 .
- 5- Gerard VERNA : la contrebande et ces acteurs : un essai de classification , les cahiers de CEDIMES, volume XIV, szptembre 1993 p1
- 6- بوطالب براهيمى - مقارنة اقتصادية للتهريب بالجزائر - رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية تحت اشراف د. شعيب بونوة جامعة تلمسان - السنة الجامعية 2001-2012 - ص 2.
- 7- نقصد بها تلك المعايير التحكم بها المجتمع على منظومة القيمة سلبا و إيجابا و هي معايير أخلاقية مرجعيتها الدين و الأعراف و العادات و التقاليد و المعتقدات.
- 8- ماكيف وشاردلز بيدج - المجتمع: ح 2 ترجمة السيد محمد الغزوي و اخرون - مؤسسة النهضة المصرية فرانكلين للطباعة و النشر القاهرة - نيورك 1971 - ص 554 .
- 9- مهدي عامل - أزمة الحضارة العربية أم أزمة البرجوازيات العربية دار الفارابي - بيروت - لبنان ط 7 2002 ص 102.